يتميز النقد الأدبي الإغريقي القديم بهيمنة الفلاسفة والفكر الفلسفي عليه، حيث يصبح الأدب ومشكلاته جزءاً لا يتجزأ من علم الجمال(الاستطيقا). ولكن الأدب يزعج الفلاسفة لأنهم يعدونه منافسهم الأكثر جذباً للاهتمام والأكثر إمتاعا، ولهذا السبب فإن المعضلة التي تثير حفيظة الفلاسفة الإغريق هي كيفية إثبات المكانة العليا للفلسفة على الرغم من جفافها وصرامتها مقابل الأدب الجميل وغير النافع؟ والنقد الأدبي الإغريقي لا يبدأ فعلياً إلا بكتيب هوراس عن «فن الشعر» وكذلك بكتاب لونجين «في الجلال»، ونظراً لضآلة القيمة النقدية الحقيقية للكتيب الأول، فإن ثمة إجماعاً عاماً على أن أول كتاب في النقد الأدبي التطبيقي في الفكر الغربي هو كتاب لونجين. أما كتاب أرسطو «فن الشعر» أو البويطيقا Poetics فهو مَعْلم مهم في النقد الغربي لا يضاهيه في الأهمية كتاب آخر، وكان تأثيره ولا يزال إلى يومنا هذا فاعلاً وبعيد المدى سواء من حيث المنهجية أم الشمولية. ولم يسلم ناقد من ذلك التأثير أو تمكن من الهروب منه.

ويأتي كتاب لونجين «في الجلال» في المرتبة الثانية بعد كتاب أرسطو من حيث التأثير والأهمية. وقد شغل كتاب لونجين الناس منذ أكثر من أربعمائة سنة، وأعجبوا به أيما إعجاب، لا بسبب موضوعه وحسب، ولكن أيضاً بسبب أسلوبه السهل وعباراته الجميلة الواضحة ومقارناته الذكية واقتباساته الغزيرة. وإن كان كتاب أرسطو يتميز بموضوعيته الصارمة وغلبة النزعة العقلية الجافة عليه، حتى أصبح درساً في تشريح

المسرحية الإغريقية وخصوصا المأساة Tragedy، فإن كتاب لونجين يتميز على العكس من ذلك بأسلوبه الأدبي الأخاذ وعباراته الطلية واهتمامه بمقارنة قصائد ومقطوعات نثرية لمؤلفين مختلفين من أزمنة بعيدة ومن لغات متنوعة.

وهنا لابد أن تنتهي المقارنة بين أر سطو ولونجين، لأن شكوكاً كثيرة أثيرت حول مؤلف كتاب «في الجلال» ولا يُعرف على وجه التأكيد إن كان كاتبه هو فعلاً لونجين أم ناقد آخر، وحتى أن ترجمة العنوان من الإغريقية إلى الإنجليزية تثير معضلات عديدة، فهو حيناً يترجم بـ«في الجلال» أو «في السمو»، وحيناً «عن الكتابة الجميلة» أو«عن الأسلوب الجميل»؛ أما في العربية فقد ترجم العنوان إلى «الأسلوب الرفيع» أو «في السمو» أو «سمو البلاغة» أو «عن الأسلوب السامي الرفيع» (1). ومن المؤسف أنه لا توجد ترجمة عربية كاملة للمخطوطة إلى يومنا هذا، بل مجرد فصول مترجمة منها، على الرغم من التشابه الكبير بين أفكار لونجين والشعرية العربية، علاوة على أن لونجين قضى سنواته الأخيرة في بلاط الزباء، مما يجعل احتمالية تأثره بالشعر العربي أمراً مفهوماً.

المصطلح اليوناني الأصلي Hypsous يدل على الجلال أو الشموخ أو العلو أو السموّ (2)، لذا فقد فضلنا استخدام الجلال «حيناً» والسمو حيناً آخر للدلالة على المفهوم الذي يعالجه الكتاب. ويعرّب اسم المؤلف حيناً لونجين أو لونجينوس أو لونجانين أو لونجاينوس. وقد فضلنا استخدام لونجين جرياً على عادة القدامى في تقريب الأسماء

المعرّبة من النظام الصوتي العربي علاوة على سهولة نطقه، فقد عرّبت العرب اسم Plotinus بأفلوطين وليس أفلوطينوس. وكذلك الأمر مع اسم Plato فلم يعرب إلى بلاتو بل إلى أفلاطون.

وقد صدرت أول طبعة من كتاب «في الجلال» في مدينة بازل بسويسرا في عام 1554 بإشراف الناقد فرانسيس روبرتيلو Francis Robortello ونسب الكتاب آنذاك إلى دايونيسيس لونجين، وقد ظهرت طبعات عديدة للكتاب وترجم إلى معظم اللغات الأوروبية وكلها كانت تنحى منحى روبرتيلو في ربط اسم لونجين بالمخطوطة حتى عام 1808م عندما اكتشف الباحث الإيطالي أماتي Amati مخطوطة للكتاب نفسه في مكتبة الفاتيكان تحت رقم (285) باسم دايونيسيس أو لونجين. وحالما أعلن ذلك الاكتشاف، وجد بأن نسخة أخرى، وهي المخطوطة الموجودة في باريس تحت رقم (2036) والتي يرجع تاريخها إلى القرن العاشر والتي تعد من أفضل النسخ وأكثرها تداولاً، تسمي المؤلف على غلاف المخطوطة دايونيسيس لونجين، في حين أن قائمة المحتويات تذكر بأن المؤلف هو دايونيسيس أو لونجين، وعُثر على مخطوطة أخرى تغفل ذكر اسم المؤلف . وهكذا فتح الباب على مصراعيه على موضوع شائك لم يغلق لحد الآن وهو: من هو المؤلف الحقيقي للكتاب؟ وبدأ الباحثون ينقبون عن هوية المؤلف الحقيقي، ضاربين عرض الحائط حقيقة أن الخلاف على المؤلف ينبغي أن ينحصر في اسمين فقط هما لونجين أو دايونيسيس، وهما الاسمان اللذان يظهران على غلاف بعض المخطوطات، إما إنهما اسم واحد

أو اسمان محتملان، ولكن عوضاً عن ذلك يقترح الكثير من المحققين والباحثين نظرية أساسها أن ناسخ المخطوطة الأصلي عندما لم يعثر على اسم مؤلفها وضع الاسمين الشهيرين في عالم النقد والبلاغة اليونانية وهما لونجين أو دايونيسيس. وهذه فرضية بعيدة الاحتمال تعتمد على احتمال أبعد وهو أن المخطوطة الأصلية لم تكن تحتوي علي أي اسم، وإن الناسخ اقترح الاسم من بنات أفكاره، ولكن رغم ذلك فإن هذا الاحتمال يضعنا أمام اسمين فقط هما كاسيوس لونجين أو دايونيسيس هالكارنا سوس، وهنا يؤكد معظم العاملين في حقل الدراسات الكلاسيكية بأن الأخير بعيد جداً عن موضوع الكتاب، حتى أن أحد المترجمين الشهيرين للمخطوطة يقول بأن أياً من كان مؤلف هذه المخطوطة الرائعة فإنه قطعاً ليس دايونيسيس هالكارناسوس(3).

من هو لونجين؟

فمن هو هذا الشخص الذي يحمل اسم كاسيوس لونجين ؟ يكاد يكون هناك إجماع بين الغربيين بأن لونجين (م) هو وزير الزباء الذي ولد في حمص ودرس في الإسكندرية 213–273 وكان صديقاً حميماً للفيلسوف فورفريوس Porphyry وأستاذه أيضاً وهو أحد تلامذة أفلوطين، مؤسس الأفلاطونية المحدثة، وكان معلّماً للبلاغة في أثينا، التي قضى فيها معظم حياته قبل أن ينتقل إلى تدمر للعمل في البلاط معلماً ومربياً ومستشاراً، ولكن القدر لم يمهله طويلاً هناك حيث

قدم حياته قرباناً للزّبّاء بعد أن أتهم بأنه حرضها على الثورة ضد روما، وهكذا أُعدم بناءً على أوامر صريحة من الإمبراطور أورليان عام 273 بعد الميلاد. وقد اشتهر في عصره بأنه من أكثر النقاد حصافة وعلماً، حتى أطلقت عليه تسمية مكتبة حية ومتحف متنقل (ويقصد بالمتحف هنا مؤسسة عالية للتعليم)؛ كناية عن سعة اطلاعه وغزارة علمه وكثره إنتاجه الذي فقد معظمه، ولم يصلنا منه غير كتاب «فن البلاغة» والذي كان قد نسب خطأ إلى ناقد آخر، حتى جاء الباحث الألماني رهنكن Ruhnken قبل أكثر من مائتي سنة ونسبه إلى لونجين بسبب طريقه المعالجةالتي عدّها قريبة جداً من أسلوب لونجين(4). ومن الغريب أن كل من كتب عن هذا الموضوع يغفل عن عمد ذكر حقيقة أن لونجين قد ولد حسب إحدى الروايات في تدمر، وفي رواية أخرى في حمص باستثناء مترجم واحد(5). ولا نجد تناقضاً بين هاتين الروايتين فتدمر كانت مدينة مشهورة تمثل أقرب ما نسميه في أيامنا هذه بالعاصمة، في حين أن حمص تمثل إحدى مدنها الشهيرة. أما الرواية الأخرى عن ميلاده فهي أنه ربما ولد في روما، علماً بأن عمه المسمى باللغة الإغريقية Phronto كان خطيباً مفوهاً هناك، وأنه عَلّم لونجين البلاغة ودربه عليها.

وعلى الأرجح فإن لونجين ولد في تدمر وليس في روما وأنه عاد في السنوات الأخيرة من حياته إلى مسقط رأسه ليساهم في بناء حياتها الثقافية والسياسية خصوصاً أن الملك أذينة ومن بعده زوجته الزباء وجدا فيه خير من يمكن أن يسهم بعلمه الغزير وثقافته الرفيعة

في تعزيز صورة تلك الإمبراطورية الناشئة، وإلا فكيف نفسر تحريضه للزباء بالتمرد على روما؟ إن منطق الأمور والتاريخ والحس السليم يرجح الاحتمال الأول، وهو أن لونجين بعد أن رحل إلى روما ودرس فيها وأصبح مكتبة متنقلة وعلماً من أعلام عصره وأشهر ناقد في زمنه، شعر بعد نضجه وتقدمه في العمر بانتمائه إلى بلده ومسقط رأسه وأحس بالتزام أخلاقي يدفعه للمساهمة في بناء إمبراطورية تدمر وإعلاء شأنها وجعلها تنافس روما لا بل أن تبزها وتتفوق عليها، حتى دفع حياته ثمناً لتلك الأفكار وعربوناً لذلك الإخلاص، كما إن ما يعزز نظرية انتمائه إلى تدمر هو أن أذينة وزوجته عهدا إليه بتربية أبنائهما ووزيراً لبلاطهما ثم هل يُعقل أن يثق الملك أذينة ومن بعده، زوجته الزباء، بشخص أجنبي وغريب على تدمر وعاداتها وتقاليدها وثقافتها ويصبح مستشاراً لهما؟ أم أن المنطق يقتضي بأن يختار كلاهما شخصاً مشهوراً وذا معرفة وثيقة بروما ورجالاتها وفنونها وبلاغتها وآدابها وخصوصاً أنه أحد أبناء تدمر؟ ثم ألا تتفق هذه الحقيقة مع مجريات الأمور لاحقاً في أنه حرّض الزباء، وهو الشيخ الجليل ومعلم البلاط، على العصيان على روما والتمرد على سلطانها لكي تصبح تدمر مالكة لزمام أمورها وتدير شؤونها مستقلة عن أي سلطة أخرى؟ وهل يُعقل أن يقوم شخص غريب تماماً على بلاط تدمر وثقافة البلاد وأهلها بالعمل مستشاراً لأرفع سلطة قضائية وسياسية في تدمر ثم يتمرد هذا الشخص عينه على بلده الأم؟

يمكن أن يعدّ كتاب لونجين «في الجلال» أول وثيقة أدبية وأخطرها تؤرخ للتقابل بين الفكر النقدي اليوناني والنظرية الشعرية العربية قبل ما يقرب من ألف وسبعمائة عام، عندما التقى لونجين ذو الأصول العربية والثقافة الإغريقية الواسعة والذي بلغ حداً من العلم والمعرفة حتى أن معاصريه أطلقوا عليه لقب «المتحف المتنقل» في بلاط زنوبية –ملكة تدمر– بحضارات وآداب متنوعة ومدهشة، كالعربية والفارسية واليونانية والبيزنطية، وديانات موحدة كاليهودية والمسيحية وأخرى وثنية وزرادشتية. فتدمر كانت محطة استراحة للقوافل الذاهبة والقادمة من الشرق، وكان الناس يلتقون في هذه الواحة الصحراوية الثرية والمترفة حاملين معهم بضائعهم وتوابلهم وعطورهم وأغانيهم، فتختلط الآداب المختلفة بالأغاني، والتجارة بالشعر، والغرب بالشرق في تناغم وتآلف نادرين. ومن هذا الخليط العجيب وفي هذا الجو الفريد كان لونجين ذو الذكاء الحاد والذهن الوقّاد يرى ويسمع ويعي كل ذلك التنوع والغنى والتلاقح. وعندما ألف كتابه «في الجلال» كان محط إلهامه الشعرية العربية والعبقرية الجمالية المرتبطة به وليس الأدب الإغريقي الذي تركه وراءه عندما غادر روما دون رجعة وهو شيخ كبير

بعض محتويات كتاب : ((في الجلال)) :

الفصل السابع: إن أفضل معيار للحكم على الجلال هو إن الإنسان المثقف والمطلع إن قرأ مقطعاً أو قصيدة عدة مرات ولم تؤثر فيه أو تملأ روحه بالسمو فإن ذلك لا يمت إلى الجلال بصلة.

الفصل الثامن: مصادر الجلال خمسة وهي:

- القدرة على تكوين الأفكار العظيمة.
- العواطف الجامحة الملهمة.
- القدرة على تكوين المجازات.
- المفردات النبيلة أو الشريفة وحسن اختيارها.
- التأثير العام الناجم عن الرفعة والسمو.

الفصل الحادي عشر: يبدأ لونجين بمناقشة بعض السمات والعناصر البلاغية ويستهلها بالإسهاب الذي يعرّفه بأنه اختيار التفاصيل المتعلقة بالموضوع وتعزيزها عن طريقي الإطالة والسمو فيها.

الفصل الخامس عشر: الصور وملكة الخيال، إن الصور هي عبارة عن تمثيل لأشكال عقلية وفكرية، وغايتها في الشعر إثارة الشعور، في حين إن هدفها عند البلغاء هو تقديم وصف مؤثر وحيوي، رغم أن الاثنين يهدفان إلى إثارة المشاعر .

الفصل السادس عشر: يناقش هذا الفصل المحسنات البديعية التي تسهم إلى حد كبير في خلق العظمة، ومن هذه المحسنات القَسَم إذا كان في موضعه، أما إذا لم يكن في موضعه، فلا علاقة له بالعظمة.

الفصل الثاني والعشرون: التقديم والتأخير ،إذا أحسن استخدامهما فإنهما يؤديان إلى انفعالات جياشة، وخصوصاً إذا كان الانطباع العام طبيعياً وليس مفتعلاً. فالفن يصل درجة الكمال عندما يشبه الطبيعة، وكذلك الطبيعة فإن أجمل فنونها ما يكون غير ظاهر للعيان.

الفصل الثامن والعشرون: الإسهاب، وهنا يقول لونجين بأن لا أحد يستطيع أن ينكر دور الإسهاب «في الجلال»، ودوره في الكلام يشبه دور الإضافات والمحسنات على المقطوعة الموسيقية التي تزداد به جمالاً ورونقاً .

الفصل التاسع والعشرون: مخاطر الإسهاب، ويُعدّ الإسهاب من أكثر المحسنات البديعية خطورة، حيث إنه يصبح في يد غير المجرب إطناباً وحشواً ولغواً فارغاً أجوف .

الفصل الثلاثون: اختيار المفردات اختيارا حصيفا يضيف إلى القول ويحرك السامعين ويؤثر في انفعالاتهم، فالكلمات والمفردات الجميلة والمنتقاة انتقاءً جيداً ليست إلا انعكاساً للفكر النبيل.

نص من الكتاب :

أفكار أولية حول الجلال

ولما كنت قد طلبت مني أيضاً أن أكتب لك شيئاً عن الجلال كمعروف لك، لنرى الآن سوية إن كانت دراستنا تحتوي على أي شيء ذي قيمة للناس في حياتهم العامة. وأنت يا من تتحلى بتلك المواهب التي تليق بك ستساعدني بنقدك الصريح حول المسائل التي سأثيرها، لأن الحقيقة أن أحسن الأقوال هو أننا نشترك مع الآلهة في خصلتين هما الكرم والصدق.

وعندما أكتب إلى باحث مثلك يا صديقي العزيز، لا حاجة بي لأن أبدأ بالتأكيد على أن الجلال يكمن في التميز في الفكر والتعبير[1] وهما الخصلتان اللتان تُعزى إليهما شهرة الشعراء والناثرين العظام[2] واكتسبوا من ورائهما سمعتهم الخالدة. فاللغة الرفيعة لا تهدف إلى إقناع السامعين بل إلى سلب لُبهم، وما يؤدي إلى دهشتنا وتعجبنا يكون دائماً وأبداً أشد تأثيراً مما يقنعنا أو يرضينا. وإن كان صحيحاً أن الإقناع يكون في العادة تحت سيطرتنا.

كاسيوس لونجين، في الجلال، ص 85، 86.

الدكتور طارق زيناي

الفصل السابع

الجلال الحقيقي

يتعين على المرء أن يفهم أنه لا يوجد في حياتنا اليومية أمر عظيم يعد احتقاره أمراً جيداً، فالثروة والتكريم والشهرة والسلطة المطلقة، وباختصار كل ما يرتبط بالبهرجة الخارجية، ينبغي للعاقل ألاّ يعدها من الحسنات لأن احتقارها فضيلة عظيمة. فالناس لا يحترمون من يتمتع بالمال والشهرة قدر احترامهم لمن يكون بوسعه حيازتهما ولكنه من الرفعة والشهامة بحيث يترفع عنهما. وينطبق الشيء نفسه على الأعمال الأدبية الشعرية منها والنثرية، حيث يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا إن كان مقطع أو مثال ما يوحي بالجلال من حيث المظهر الخارجي، ولكن عندما نتفحصه وندرسه بإمعان سيتضح أنه تافه وأجوف ويجدر بالمرء أن يزدريه لا أن يبدي إعجابه به، لأن من حقائق الطبيعة أن الروح تنتشي بالجلال الحقيقي وتسمو به. وعندما نشعر بالبهجة والفخر ينتابنا إحساس غريب أننا إنما نسمع شيئا من إبداعنا. ولذا فإن الإنسان الحصيف الذي يتمتع بخبرة أدبية يسمع شيئاً عدة مرات، ولا يؤدي به ذلك إلى الإحساس بالرفعة، أو لا يجعله يفكر بما هو أبعد من مجرد المفردات، ولكن يثبت في نهاية المطاف وبعد المعاينة الدقيقة أنه غير ذي قيمة، فإن ذلك ليس جلالاً حقيقياً ولا يستمر أبعد من لحظات الاستماع. إن الجلال الحقيقي يحتوي على غذاء للفكر، وتتعذر مقاومته، ويترك تأثيراً لا يُمحى على الذاكرة.

وباختصار يمكنك أن تعد الجلال الحقيقي كل ما يبهج الناس طوال الوقت. فعندما يتفق الناس على اختلاف ثقافاتهم وأذواقهم وأعمارهم وسلوكهم على شيء ما، فإن ذلك الإجماع يضفي قوة وعزماً على أصالة قناعتهم رغم اختلافهم البيّن.

كاسيوس لونجين، في الجلال، ص101، 102.